مجلّة
اللّغة العربيّة وآدابها
رقم الإيداع القانوني: 8004-2013 ISSN: ر.د.م.د: 9830-2352

أغاني مهيار الدمشقي لأدونيس
قناع أم أسطورة مبتدعة

د/ رابح فارس
جامعة البليدة(2)

تاريخ الإرسال : 2018/04/15 تاريخ القبول:2018/05/06

الملخص:

إعتبر معظم الدارسين لأغاني مهيار الدمشقي، للشاعر أدونيس، شخصية " مهيار الدمشقي" قناعا تقنع به الشاعر، استعاره، من الشاعر العباسي المتمرد مهيار الديلمي، إلا أنهم وقعوا في الخبط والخلط والتناقض حين وجدوا أن لا جامع بين شخصية مهيار الدمشقي، ومهيار الديلمي، لأن الشخصية الأولى تفيض عن كل شخصية واقعية (تاريخية) مهما كانت سيرتها عظيمة ومتميزة. ولم يدركوا أن "شخصية مهيار الدمشقي" أسطورة من ابتداع أدونيس، عكس بها فهمه الحداثي للذات المعاصرة الواعية، التي تبدع الوجود وتغيره، و لا تؤمن بالثبات، إنها أسطورة الإنسان الحديث، الموجود الذي يعكس الوجود.

Abstract :

When Adonis , the great arabe poet published his famous work (the songs of mihiar of damascus) in 1961 ; several criri ics agreed that those songs are different from the previous works of the poet , which make them a decisive turn in his whole work, and made him mouve from tamouz phase (myths of resurrection) to write that kind of poem known in arabic litterture as (mask's poem),and become, ,a Widespread phenomenon , which brings me to try to demonstrate in this paper, that i don't totaly agree with that point of view that makes the (songs of mihiar of damascus) an example of masks poem, on the contrary, i would explain how Adonis has used the myth of (mihiar)as a made up myth to explain the existence through the creative soul, as (Nietsch)and (Hideger) have expose dit in their philosophy, the same philosophy that matchs Islamic philosophy espicialy the mystic philosophy of Ibn arabi and Sahraouardi

مقدمة:

بدأ ادونيس(*) تجربته الشعرية الأولى، وفق الفهم والنمط الشعري العربي التقليدي، فجاء شعره في هذه المرحلة متضمنا الأغراض والوقائع المختلفة، شأن القصيدة "التقليدية" فكتب شعرا وطنيا وقوميا، على ضوء أدبيات الحزب السوري القومي الاجتماعي ، الذي أسسه (أنطون سعادة) (**) نذكر من هذه الأعمال الشعرية : " معزوفة الدماء" (ملحمة شعرية)، "هانيبال"(ملحمة شعرية)، " ديدون" (مسرحية شعرية) ، " دليلة" (قصيدة طويلة) أو (ديوان)، إضافة الى كتابته في الموضوعات الاجتماعية والإنسانية المختلفة : من فقر ، وظلم، وعدالة...الخ. وقد أراد أدونيس – فيما بعد – أن يودع هذا الشعر في درج النسيان، فلم يضمنه إصداراته الأولى التي جسدها في مجموعتيه : " قصائد أولى" ، و "أوراق في الريح"، اللتين نعتبرهما بداية تجربته الشعرية الحداثية الجادة، ولو بخطى ثقيلة، وبنسبة تتباين بين تجربة وأخرى. و لا نوافق سعيد بن زرقة عندما قال : ((بدأ أدونيس حياته الشعرية كباقي الشعراء المحدثين، متأثرا بالقصيدة النمطية التقليدية، فجاءت أغلبية قصائده التي كتبها من الفترة الممتدة من سنة 1950 الى 1960 معبرة عن روح الشعر القديم"[1].

ومن الواضح أن النزاهة العلمية تأبى مثل هذا التعميم خصوصا في المرحلة التي صدرت فيه مجموعتاه :"قصائد أولى" و "أوراق في الريح" بين سنوات 1950 – 1960م.عندما ولج عالم الحداثة الشعرية متكئا على الأسطورة كشأن بقية شعراء الحداثة العربية أمثال "السياب" و " البياتي"و"خليل حاوي"...الخ،الذين اطلق عليهم أسعد رزوق إسم"الشعراء التموزيون"خصوصا أساطير البعث، كأدونيس، وتموز، وأوزيريس"(2).

نعتبر هذه المرحلة الشعرية الأولى في مسيرة أدونيس الحداثية بمثابة فترة الشباب الأولى التي تتميز بالاندفاع حينا والنكوص حينا آخر، بحثا عن الشخصية الحقيقية.

وهم القناع في شخصية "مهيار الدمشقي:

بعد المرحلة الشعرية الأولى في تجربة أدونيس التي امتدت بين 1950- 1960م. وضمنها مجموعتيه: "قصائد أولى" و"أوراق في الريح" وكانت تعادل طور الشباب الأول في حياة الفرد. وجدناه ينتقل الى تجربة شعرية حديثة أخرى يتجلى فيها العنفوان والنضج،

والمغامرة الفنية الواعية. بمجموعته/قصيدته الطويلة. " أغاني مهيار الدمشقي" التي أصدرها عام 1961م. ونشرها – فيما بعد- في المجموعة الأخيرة من المجلد الأول في آثاره الشعرية الكاملة.

لقي هذا العمل الشعري الكبير، اهتماما زائدا من النقاد والدارسين، واجمعوا أن الشاعر أدونيس حقق فكرة "التجاوز والتخطي"،عبر تقنية "القناع".

وتتكون هذه القصيدة/ المجموعة من سبعة أقسام،أو فصول، هي : " فارس الكلمات الغريبة(3)" ، و "ساحر الغبار(4)" و " الإله الميت(5) "، و "إرم ذات العماد(6)" و"الزمان الصغير(7)"، و "طرف العالم(8)"، و "الموت المعاد(9)".

تبدأ هذه الأقسام، أو الفصول، بمزمور، ماعدا السابع منها : "الموت المعاد".

وبهذا التقسيم الذي اعتمد عليه أدونيس في بنية هذه القصيدة الطويلة، أو المجموعة، الخارجية، فإنها احتوت على مائة وخمس وثلاثين مقطوعة، كل واحدة منها تحمل عنوانا، مضاف إليها ستة مزامير، وبذلك يكون المجموع الكلي بين المزامير والمقطوعات : مائة وواحد وأربعين(141).

عندما صدرت أغاني مهيار الدمشقي، تلقفها الدارسون والنقاد باهتمام بالغ، واعتبر معظمهم شخصية " مهيار الدمشقي" قناعا اختفى وراءه أدونيس، ليمارس تجربة متفردة في الإبداع الشعري، ويحدث قفزة في الممارسة الشعرية الحداثية العربية.

من أوائل الدارسين لأغاني مهيار الدمشقي، وأبرزهم، الدكتور جابر عصفور، الذي أفرد لهذا العمل الشعري حيزا واسعا في كتابه "رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر" ، تحت عنوان : " أقنعة الشعر المعاصر : مهيار الدمشقي". إذ أكد في هذه الدراسة على أن " مهيار الدمشقي"، واحد من أشد أقنعة الشعر العربي المعاصر لفتا للانتباه و لا تتمثل أهميته في أنه من خلق شاعر متميز هو أدونيس، وإنما فيما ينطوي عليه القناع نفسه من مغزى متميز، إنه أول قناع – في الشعر العربي المعاصر – يسيطر على ديوان بأكمله، هو "أغاني مهيار الدمشقي" (1961) ، وهو بعد ذلك قناع يتحول الى رمز متكرر، لا يتوقف أو ينقطع بصدور الديوان الذي يحمل اسمه، بل يفرض حضوره في شعر أدونيس – ابتداء من "كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل" (1965) ، مرورا بالمسرح والمرايا" (1968) (10) ".

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

ولكي يثبت جابر عصفور فكرة القناع، راح يربط بين شخصية "مهيار الدمشقي" في الأغاني، وبين شخصية " مهيار الديلمي" الشاعر المتمرد في العصر العباسي، حيث يقول : ((و " مهيار الدمشقي" تركيب من اسم ونسبة. أما الاسم فالشاعر " مهيار بن مرزويه الديلمي" (360-428 هـ)، الذي عاش في بغداد ومات بها. أما النسبة فنرجع الى علي أحمد سعيد – أدونيس – (1930) السوري المنسوب الى العاصمة دمشق، تلك التي اضطر – غير مرة – الى مغادرتها والفرار منها. وكلا الشاعرين – الديلمي والدمشقي – متمرد يعيش رافضا عصره، وكلاهما عانى من الرفض، فلاحقته لعنة الاتهام وسوء الظن غير مرة، بل انسحبت لعنة الأول على الثاني، فاقترنت شعوبية الديلمي بما سمي شعوبية أدونيس. الحزب القومي السوري – اقترانا غير حميد.

ومع ذلك فليس يربط بين أدونيس والديلمي سوى التمرد [11]".

إن ما يهمنا في كلام الدكتور جابر عصفور، هو إقراره بعدم وجود رابط بين "أدونيس" و"الديلمي" سوى "التمرد". ورغم هذا ظل مقتنعا بفكرة القناع في شخصية " مهيار الدمشقي" في " الأغاني" ومن المؤكد أن جابر عصفور كان يرى بأن هذه الظاهرة الفنية جديرة بالدراسات المستفيضة، فوجه عبدالرحمن بسيسو إلى إنجاز اطروحته في الدكتوراه فيها وتحت إشرافه. فأنجزها بسيسو بعنوان : "قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر (***) ".

إن ما يهمنا في هذا البحث، أن الباحث ميز بين القناع التاريخي حيث يختفي الشاعر وراء شخصية تاريخية معروفة، وبين القناع المبتدع الذي هو من نسج خيال الشاعر. وفي هذا يقول في القناع التاريخي: " وحين يذهب الشاعر، في ضوء ما سبق الى التماهي بآخر ، فان هذا الآخر، الأنا المغاير، لا يكون إلا نسخة مطابقة، أو انعكاسا، أو حضورا متعينا للرؤية التي تخامره عن ذاته، و لا يكون الشاعر غير (أنا) يريد أن يلقي في (أنا) أناه المغاير – الآخر، حضوره المتعين وجوهره العميق. وهكذا يتم إسكان الفكرة في كيان هو القناع [12]". وهذا ينطبق مع رأي الدكتور إحسان عباس حين يقول : ((يمثل القناع شخصية تاريخية في الغالب، يختبئ الشاعر وراءها، ليعبر عن موقف يريده، أو ليحاكم نقائص العصر الحديث من خلالها... فمن أقنعة أدونيس : مهيار الدمشقي " شخصية متخيلة " ... ومهيار يعبر عن التحول متخطيا التاريخ [13]".

وبهذا، تكون حقيقة القناع – في الأصل – شخصية تاريخية، وهو ما أكد عليه جابر عصفور، وإحسان عباس، وعبدالرحمن بسيسو.

غير أن شخصية مهيار الدمشقي في الأغاني أربكتهم – في رأينا – فاعتبروها قناعا خاصا يجمع بين التاريخي والمتخيل، وهو ما دفع جابر عصفور – كما سلف – ان يعرف الشاعر " مهيار بن مرزويه الديلمي، رغم أنه يعترف بأنه لا رابط بين أدونيس وبين مهيار الديلمي سوى التمرد؟

وحاول عبدالرحمن بسيسو أن يجد مخرجا لهذه الإشكالية، فقرر أن القناع في أغاني مهيار الدمشقي ابتداعيا. إذ يقول : " وقد يكون القناع المبتدع، كشخصية متخيلة، شخصية تجريدية غير محسوسة وكأنما هي كينونة تأتي من الوراء من الغيب، كي تحضر في الواقع حضور الأرواح التي نتصور أنها تسبح فوق رؤوسنا، وفي فضاء العالم، بعد أن تفارق أجسادها، وذلك على نحو ما هو غالب على " مهيار الدمشقي [14]")).

أما وفيق خنسة فقد كان حذرا أمام شخصية مهيار الدمشقي فتحاشى تصنيفها، ولجأ إلى لغة هلامية تفلت من الحكم، إذ يقول : ((" أغاني مهيار الدمشقي" نمط خاص من الشعر، يدعو القارئ بألف صوت وصوت، ويمد له غابة من الأذرع، ولكنه يترك مسافة بين " الأغنية"، القصيدة والمتلقي، هذه المسافة مشحونة بالوهج، والإثارة والأسطورة، ولكي نجتاز هذه المسافة كما يجب، أو كما هو مطلوب منا، ، لاستجلائها وتوضيحها وتذوقها،، لابد من الحيطة والحذر، وبالتالي الانتباه الدائم إلى إغراءات اللغة، وطاقتها الايهامية...الخ" [15].

لا يهمنا من هذا النص المراوغ، سوى عبارة "الأسطورة" ولو أنه أوردها ضمن عدة احتمالات.

إننا نلفت أن الشاعر أدونيس أورد تصديرا هو عبارة عن مقطوعة للشاعر الألماني الكبير"هولدرلين" يقول فيها :

لماذا لا تكفيني أيتها الشمس الجميلة؟
وفجأة يأتي، يسقط علينا
الموقظ
الغريب

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

الصوت الذي يخلق الناس"[16] .

شخصية مهيار الدمشقي أسطورة ابتداعية :

عد فيلسوف الوجود "مارتن هيدغر" "هولدرين" شاعر الكينونة، ومبدع الوجود عبر اللغة الشعرية. يقول الدكتور "حبيب الفريوي" : " إمتياز هولدرين على الشعراء بقدرته على التفكير في الوجود ابتداء من التفكير في مقامه البدئي عند الإغريق، يجمع الابتداء والانتهاء، يعلن ذاته أساس كل قول فلسفي، ولدت الفلسفة بمولد أول شاعر فكر في حقيقة الوجود. تعكس الحقيقة العمل الفني ذاته، وتظهر الموجود، لم يكن موجودا ولن يكون كذلك في المستقبل، تظهر حقيقة الموجود في العمل الفني أو ما يسمى الشعر، إنه جوهر الفن وحامل لغة الوجود، تحدث الحقيقة في تنظيمه شعرا" [17] .

إذن، وفق هذا الفهم، الشاعر الحديث هو الذي يبدع الوجود، ويجسده في القصيدة.

ومن المعلوم أن تكوين الشاعر أدونيس الأساسي كان فلسفيا، وتأثر كثيرا بالفلسفة الألمانية الحديثة، خصوصا "فريدريك نيتشه" و"مارتن هيدغر".

ونرى أنه بهذا التأثر، بدأ أدونيس يجرب ممارسة شعرية الإبداع – إبداع الوجود – انطلاقا من " أغاني مهيار الدمشقي"، بحيث أبدع شخصية "مهيار الدمشقي" كأسطورة تمارس فعل الخلق والتحول من خلال الأدوار والأطوار العديدة عبر الزمان والمكان، أي الموجود الذي لا يتحقق الوجود إلا به. وهي فلسفة "هيدغر" في كتابه العتي : " الوجود والزمان".

إن تقسيم أدونيس الأغاني إلى سبعة فصول أو لوحات كان مقصودا، لأنها تقابل عدد أيام الخلق، كما جاءت في أساطير الخليقة. وكما جاءت في "سفر التكوين" من " العهد القديم" من الكتاب المقدس.

لقد تجاوز أدونيس بهذا العمل الشعري مرحلة توظيف الأسطورة القديمة في شعره الذي أنتجه بين سنوات (1950-1960م) وأنتج فيها مجموعتيه : " قصائد أولى" و " أوراق في الريح" . كما ذكرنا سابقا.

لقد أراد لهذه المرحلة في حياته الشعرية التي استهلها بهذه الأغاني من مرحلة الأسطورة الرامزة الى أسطورة الخلق والإبداع "أسطورة الوجود"، مما تطلب منه أن

يتقمص دور " الناسوتي" و" اللاهوتي". وهنا يجب أن تحتل اللغة وظيفة استثنائية، وكيف لا وهي سكن وعالم " مهيار الدمشقي" و"سكن الوجود" كما أعلن "هيدغر" في فلسفته.

جاء أول فصل في "أغاني مهيار الدمشقي" المرسوم بـ "فارس الكلمات الغريبة"، الذي استهله بمزمور من النثر الشعري كالآتي : يقبل أعزل كالغابة وكالغيم لا يرد، وأمس حمل

قارة ونقل البحر من مكانه

يرسم قفا النهار، يصنع من قدميه نهارا ويستعير حذاء الليل ثم ينتظر مالا يأتي، إنه فيزياء الأشياء

يعرفها ويسميها بأسماء لا يبوح بها، إنه الواقع ونقيضه الحياة وغيرها [18].

لقد سبق وأن ذكرنا، أن الدكتور جابر عصفور اقتنع بأن العلاقة بين شخصية " مهيار الدمشقي" و "مهيار الديلمي" واهية، ماعدا في حالة "التمرد"، ومع ذلك ظل متمسكا بفكرة " القناع " ؟ مع مايصاحبه من تعسف وتمحل، حيث يقول : ((وتقودنا هذه الملاحظة الأخيرة الى الخاصية الأولى لمهيار الدمشقي، إنه قناع يصاغ صياغة مجاوزة منذ اللحظة الأولى، فلا يلفتنا إلا اسمه، وذلك بكل ما ينطوي عليه من تفرد واستقلال، فهو لا يشبه أي قناع آخر من أقنعة ادونيس، مثل " الصقر" أو "الغزالي" . وليس في مهيار الدمشقي شيء من هذا كله. إذ ليس هناك إشارة الى أحداث تاريخية مرتبطة به ارتباط الفرات – مثلا – بفرار عبدالرحمن (الصقر) من الموت، وإنما يلفتنا الاسم منذ البداية الى شخصية مخترعة، تركبت من اسم ونسبة، يجاوز تجاورهما الماضي والحاضر معا ، لتدخلنا الشخصية نفسها الى عالم غريب)) [19] ". ويعود ارتباك الدكتور جابر عصفور – في رأينا – الى ربط تجربة أدونيس الشعرية، بباقي تجارب شعراء الحداثة العربية، السالكين نهج مدرسة الشعر الحر العراقية، المستندة الى المدرسة الشعرية الأنجلوسكسونية الحديثة، مثل : السياب، والبياتي، وحاوي، وعبدالصبور، وكذلك أدونيس في مرحلة من مسيرته الشعرية، خصوصا في المرحلة التموزية.

إلا أن عصفور لم ينتبه أن الشاعر أدونيس بدأ يستقي من منبع غربي آخر، وهو " المدرسة الشعرية الرمزية الفرنسية الحديثة"، ومن الفلسفة الألمانية الحديثة، خصوصا

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

فلسفة " نيتشه"وفلسفة " الوجود" عند "هيدغر" ، من دون إغفاله أهمية وقيمة فلسفة الإشراق الصوفية الإسلامية، عند أقطابها الكبار.

ومن هنا نلح على ضرورة إبعاد فكرة "القناع " عن شخصية مهيار الدمشقي في الأغاني، لأن كل الدلائل والقرائن تنفي هذا التصور. كما يجب صرف أذهاننا عن التمحل في مدلول "المزمور" في الأغاني، مثلما حاول بعضهم الغمز في أدونيس استنادا إلى هذه العبارة خصوصا وأن أدونيس على دراية، بأن كثيرا من قصص "العهد القديم" في الكتاب المقدس "مجرد كتابة أخرى لأساطير وادي الرافدين، والهلال الخصيب[20]."

إن ما يهمنا من مزمور " فارس الكلمات الغريبة" من "أغاني مهيار الدمشقي"، أن الشاعر أدونيس وضعنا في مواجهة قوة غير مألوفة : خارقة، وخالقة، وغريبة، تعلن عنها الجوقة (المزمور) في إهاب ترتيلة، او ابتهال، شبيهة بتراتيل معابد صور القديمة، وهي ترافق مراسيم التضحية، ومنها تضحية " الفينيق" بنفسه من أجل البعث والتجدد. وهو ما وظفه بكثافة في المرحلة التموزية التي ضمتها مجموعتاه: " قصائد أولى " و "أوراق في الريح" ما بين (1950- 1960م).

أراد أدونيس بعد هذا التاريخ ، أن يفتتح عهدا جديدا في تجربته الشعرية، الذي استهله بـ " أغاني مهيار الدمشقي" فأخذ يجرب شعرية التجاوز والتخطي، وبعبارة أخرى شعرية إبداع "الوجود" على حد تصور "هيدغر"، وحسب فلسفة هذا الأخير فإن الوجود لا يتحقق إلا بموجود يتجلى من خلاله الوجود ويتغير ويأخذ معناه، وهو الإنسان، وبالتدقيق الفرد صاحب الإرادة والقدرة على التغيير والإبداع. فهو "الخالق" و "المخلوق" أي "اللاهوتي " و " الناسوتي" في آن معا ؟ ولذلك أورده متصفا بصفات خارقة، وتصدر منه أمورا عجيبة وغريبة : "يقبل أعزل كالغابة وكالغيم لا يرد، وأمس حمل قارة ونقل البحر من مكانه...".

إن مثل هذه الصورة تفيض على كل الأوصاف التي يمكن أن تتجسد في أي شخصية يمكن أن يتقنع بها الشاعر حتى لو كان بطلا ملحميا، لأن وظيفة القناع في هذه التقنية هي التمثيل والتشبيه ولهذا، لا نوافق عبد الرحمن بسيسو، عندما صنف "مهيار الدمشقي" ضمن أقنعة الشعر العربي الحديث، التي أراد بها الشعراء العرب في العصر الحديث، تجاوز النزعة الرومانسية التي كانت طاغية آنذاك. بهدف خلق المعادل

الموضوعي، إذ يقول : " لقد أرادت حركة الحداثة الشعرية العربية التي انطلقت من المناخ الرومانسي لتكون مختلفة عنه، أن تكون حركة للتجاوز والتخطي، ولعل قصيدة التجربة، و في إطارها قصيدة القناع، تمثل المنجز الشعري الأبرز لتجاوز النزعة الرومانسية [21] ".

بهذا، نحن نصر على أن شخصية "مهيار الدمشقي" ليست قناعا لأي شخصية ما. مثلما ذهب جابر عصفور، وعبدالرحمن بسيسو، وإحسان عباس وغيرهم، وإنما أسطورة من ابتداع الشاعر أدونيس، أراد بها تجاوز الفهم الميتافيزيقي للوجود والموجود معا، لتكريس فكرة الثبات التي سعى الفكر التقليدي الى تكريسها.

ولأن شخصية " مهيار الدمشقي" أسطورة مبتدعة لا يمكن أن يحملها أي قناع، نجد الدكتور جابر عصفور يقول في تعبير يناقض فكرة القناع من دون ان يشعر: " وليست هذه الصفات صفات إنسان عادي، أو كائن واقعي، وإنما هي صفات بطل أسطوري يخلق نوعه بدءا من نفسه" [22].

إذن، " مهيار الدمشقي" أسطورة من ابتداع الشاعر أدونيس. تبدأ الأغاني بالمشهد الأول بعنوان " ليس نجما" من الفصل الأول المرسوم بـ " فارس الكلمات الغريبة" :

ليس نجما ليس إيحاء نبي
ليس وجها خاشعا للقمر
هو ذا يأتي كرمح وثني
غازيا أرض الحروف
نازفا يرفع للشمس نزيفه
هو ذا يلبس عري الحجر
ويصلي للكهوف
هو ذا يحتضن الأرض الخفيفة [23]

مارس أدونيس انزياحا كبيرا – هنا – على المدلول، ووضعنا أمام إبهام شديد، بسبب خروجه عن النظام اللغوي المألوف في التعبير الشعري، سواء في القصيدة العربية التقليدية، وحتى في القصيدة الحديثة التي مارسها الشعراء العرب، ومنهم هو. وبه عطل تصوراتنا للوجود المألوف وأشيائه.

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

إن هذا الموجود الذي ينعكس فيه الوجود في هذا النص، يشبه رمحا وثنيا ؟ والمعتاد ان الرماح لا تصنف بحسب الدين أو النحلة، و لا توصف بأنها مؤمنة أو ملحدة أو وثنية؟

إن المألوف في الرماح أنها تعرف بشكلها وحجمها، فقيل : " رمح " ، و "قناة"، و "حربة"، و" مزراق" ...الخ. كما عرفت بنسبتها الى المكان الذي نبت فيه عودها، فقيل : "خطي"، و"رديني"...الخ، وهذه التعريفات والأوصاف هي التي ظلت تتردد بثبات في المنظومة اللغوية، طوال أزمنة عديدة.

إذن، بدأ أدونيس يمارس تجربة شعرية حداثية، تنطلق من "الذات" باعتبارها مصدر الوعي بالوجود ومجلاه. حيث يشع منها عبر بؤرة أو" فجوة (Lichting) " لا ندركها إلا في اللغة، وبالتدقيق في اللغة الشعرية (24) ، مثلما أعلن عن هذا فيلسوف الوجود الأكبر، "مارتن هيدغر"، فإذا به – الوجود- حاضرا في الوعي، ويرتد باطنيا الى أعماق فجر الإنسانية السحيق، ووعيها البكر، عندما كان يعيش بكارته عاريا في تلاحم مع الطبيعة، وقبل أن يسدل بينهما ستار (لباس) ، نتيجة ظهور السلط العديدة عبر حقب طويلة مستعينة بالسياسة والميتافيزيقا مما جعل الوجود يتوارى ويختفي وراء حجاب.

كان عضو الذكورة قبل أن يحتجب الوجود الحقيقي عاريا على الدوام، يعبر عن مدلولات طوطمية و أسطورية بدائية عديدة. ولازالت بقايا تجمعات بدائية في أدغال إفريقيا وآسيا تقيم أنصابا ضخمة بشكل عمودي للعضو الذكري حول تجمعاتها، كرمز لبذرة الحياة الأولى التي قذفت في رحم الوجود. وهو سر تقديسهم روح الأجداد.

إن هذا الوجود البكر المحتجب اختفى في أعماق النفس القصية، وقد تستحضره الذات الواعية، خصوصا عند كبار المبدعين وذوي المواهب الخاصة، وأيضا في الحلم المتميز (الرؤيا) . وهو ما تجلى في قول أدونيس : " هو ذا يأتي كرمح وثني". إنها لحظة انقذاف الوجود من عالم الغياب والاحتجاب كضوء متسلل من فجوة مثلما انقذفت نطفة الحياة من عضو الذكورة في رحم المرأة فكان وجود الإنسان في الحياة. إن لحظة الحياة الأولى، والوجود البكر، الذي حجبته الميتافيزيقا يطفح بشكل باهت في الثقافة العربية الإسلامية التراثية، الرسمية والصوفية معا. وهو مما انتبه إليه أدونيس بلا ريب.

يرى رجل الدين "الفقيه" وهو حارس قواعد الميتافيزيقا الآمرة، أن حله للمسائل الفقهية المطروحة "فتحا"، ويرى الصوفي – خصوصا القطب – "فتحا" حينما ينكشف له عالم ما وراء الحس، عن طريق "الحدس" أو "الرؤيا" . حيث يحضر الوجود الغائب، فيصفه بلغة رامزة ، تعصف بالنظام اللغوي القائم. فالقلم عند الصوفي يوازي عضو الذكورة الذي يفترع العذرية، ويقذف ماء الحياة في الرحم، وهو كذلك حين يفترع اللغة ويولد معاني بكر مما يترتب عنه خلقا جديدا للوجود.

إن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي حين يستنطق الحروف ويعطيها معنى عن طريق التأويل، فإنما يستحضر عالما ظل في طي الغياب، ويفعل ذلك بثقة وقناعة لأنه من أهل الحدس والكشف. ولعل الرؤيا التي رآها في مدينة بجاية، وهو في طريق رحلته المشرقية من الأندلس. خير دليل على هذه القناعة. إذ يقول :" رأيت ليلة أني نكحت نجوم السماء كلها، فما بقي نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية : ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها. وعرضت رؤياي هذه على من عرضها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها، وقلت للذي عرضتها عليه لا تذكرني، فلما ذكر له الرؤيا استعظمها وقال : "هذا هو البحر العميق الذي لا يدرك قعره، صاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم العلوية" وعلوم الأسرار وخواص الكواكب، ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه" [24] .

و لا نريد الإفاضة في دحض رأي الدكتور زكي مبارك، الذي وصف هذه الرؤيا بـ " البهلوانية" ، وردها إلى حرمان بن عربي من المرأة، وهي انعكاس لمكبوتاته الغريزية، متناسيا ان ابن عربي نشأ في بيئة الأندلس المترفة، وأنه لم يعاني الحرمان من المرأة، وأنه ليس من الصوفية الزهاد، وإنما تصوفه فكري وعرفاني، ويكفيه انه تزوج بامرأة بجاوية من أصول أندلسية عريقة وهو في طريقه إلى بلدان المشرق، كما عدد الزوجات في حياته، سواء عندما حل في أرض الأناضول أو في الشام.زيادة على تسريه بالجواري المتعددات الأعراق، التي أهداها له حكام الأناضول والشام. كما نسي الدكتور مبارك أن محي الدين بن عربي كان يرى الوجود الظاهر "خيال في خيال" أي مجرد تصورات وأوهام، بينما الوجود الحقيقي هو القابع وراء ستار الحس، أي في أعماق الذات القصية.

إذن، أراد الشاعر أدونيس، انطلاقا من خلفيته الفلسفية المتمثلة في فلسفة الوجود العايدغارية، وبدءا بـ "أغاني مهيار الدمشقي"، أن يتجاوز بشخصية مهيار

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

الدمشقي، مفاهيم الوجود التقليدية المستمدة من الرؤية الميتافيزيقية، التي تثبت الأشياء والمفاهيم، وتفصل بين الوجود والموجود.

لقد أنكر "هيدغر" قدرة" الفينومينولوجيا الترتسندنتالية" التي أتى بها أستاذه "أدموندهوسرل" على تجاوز الميتافيزيقا وفهم الوجود. واقترح بدلا عنها فينومينولوجيا معدلة هي : الفينومينولوجيا التأويلية" ومؤداها، انه لا يمكن تفسير الظواهر، وإنما يجب فهمها وفق وجهة تأويلية. و لا يكتفي "هيدغر" بمسألة فهم الوجود – فقط- وإنما يبحث في فهم "الموجود" (الإنسان) ، كمشروع ملقي في العالم متجها في الزمان نحو تحقيق مجموعة إمكانيات، فوجوده لا يكتمل في أي لحظة، وهي الميزة الماوهوية التي ينفرد بها عن كل الموجودات.

وعودا على بدء، لنؤكد على أن شخصية " مهيار الدمشقي" في الأغاني للشاعر أدونيس، أسطورة مبتدعة، وهي تتماسف مع الآساطير القديمة، وتتمايز عنها في نفس الوقت، وهي أقرب الى المفهوم والفكرة، منها الى الشخصية بالمعنى المتعارف عليه.

وكان يوسف سامي اليوسف محقا حين قال : " ومهيار ليس شخصية بكل ما في الكلمة من معنى، بل هو مفهوم بالدرجة الأولى"(26).

وفي كل الأحوال، فان هذه الشخصية أو المفهوم، ما هو إلا رمزا للقوة الهادمة والبانية في نفس الوقت، العاشق للتحول والتغيير، ولذلك فهو يتلون ويتجلى مرة في هيئة إله، ومرة في دور نبي، وأخرى في صورة شيطان، وقديس...الخ.

وهو في كل تجلياته يمارس طقس التغيير. إنه الإنسان الحديث الواعي بذاته، الموجود في وجود شديد التعقيد، ويطرح أسئلة عميقة ومرهقة، لأنها أسئلة الحداثة التي تنتظر إجابة مقنعة؟

إن الإنسان الحديث – الواعي- يدرك ان لا شيء ثابتا في هذا الوجود. مثلما وعى الفيلسوف "هيراقليطس" – قبل سقراط الميتافيزيقي : " إنك لا تعبر النهر مرتين". لان كل شيء في تغير وحركة.

لذا نجد شخصية "مهيار الدمشقي" تتقاطع مع الشخصيات المأساوية (التراجيدية) في التراث الإنساني. فبينما نجد مهيارا "ملكا" في نص "ملك مهيار" من فصل "فارس الكلمات الغريبة" في الأغاني:

ملك مهيار

ملك والحلم له قصر وحدائق نار

فإذا به في دورة أخرى، ضعيفا، وحيدا، لا ملك له و لا سطوة، و لا يأبه له أحد :

واليوم شكاه للكلمات

صوت مات [27].

إن هذا الانقلاب المأساوي في حياة "مهيار الدمشقي" يتشابه مع مآسي " أسخيلوس" (526- 456.ق.م.) في مسرحياته الشعرية المأساوية.

ولأن دراسة شخصيته "مهيار الدمشقي" باعتبارها شخصية مبتدعة، يتطلب حيزا أوسع غير مسموح به هنا. فإننا ننبه الباحث في هذا العمل الشعري وما تلاه للشاعر أدونيس، أن يراعي ثلاثة مفاهيم أساسية لدراسة شعر هذه المرحلة التي يصح أن يطلق عليها مرحلة قصيدة "الوجود" ، وهي :

1- مبدأ الكونية :

حين نبحث عن قضايا الإنسان العربي وهمومه بصفة خاصة، والعالمي بصفة عامة، في "أغاني مهيار الدمشقي" وما تلاه من شعر أدونيس، فإننا لا نكاد نعثر على شيء من هذا. وإنما نجده مشغولا بهموم ومشكلات كبرى، ظلت من انشغال الصفوة من البشر : كالأنبياء، والفلاسفة، وكبار المبدعين. هي مشكلة الحياة والوجود. وقد لاحظ"عادل ضاهر" هذه الظاهرة في شعر ادونيس منذ هذه المرحلة بقوله :" إن "أغاني مهيار الدمشقي" تجربة حية، تلخص لنا قلق إنساننا المعاصر بكل ما فيه من زخم التمرد وتوتر الخلق، تجربة تمثل لنا محاولة الإنسان الأكثر شمولا وعمقا في فهم معنى وجوده في العالم، ومعنى الكون المائل حياله"[28].

2- مبدأ الصيرورة وتحولاتها :

لابد على الباحث في أعمال ادونيس الشعرية منذ "الأغاني " وما تلاها، أن يراعي مبدأ "الصيرورة" أو فكرة التحولات التي أخذ بها أدونيس لفهم الذات والوجود، وهو موقف مضاد لفكر الثبات الذي لازم الإنسان العربي وأدخله في قمقم لم يبرحه لغاية الآن، وهو في هذا يساير فكر الحداثة الغربية ممثلا بفلسفة " الهدم" (النيتشوية)، وفلسفة الوجود

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

" الهيدغرية"، وتذهب صعودا إلى فلسفة الإغريق ما قبل الميتافيزيقية، خصوصا عند " برمنيدس" و " هيرافليطس" التي تفهم الوجود أنه في حالة حركة وتحول دائمين.

والتحول كما يفهمه أدونيس، أن ثمة قطبين تتشكل منهما تحولات العالم : الأول : الظاهر: ويشمل الموجودات، وفي مقدمتها الإنسان كأكبر معبر عن الوجود. الثاني : الباطن : الذي يشمل أعماق النفس، ونزوعها نحو الوحدة الكونية، لأن العالم يقوم على الأضداد ضمن مفهوم التحولات. فالجامد يصير سائلا، والحي يصبح ميتا، والعكس...وهذا الصراع هو قانون الوجود، وعلة الحركة الدائمة، يقول أدونيس في أغاني مهيار الدمشقي : "

حيث يصير الحجر بحيرة، والظل مدينة – يحيا – يحيا

ويظل اليأس، ماحيا فسحة الأمل، راقصا للتراب كي يتثاءب وللشجر كي ينام [29].

3-اللغة الخاصة:

مع "أغاني مهيار الدمشقي"، بدأ الشاعر أدونيس يمارس لعبة الإبداع عبر اللغة، فالكلمة عنده – كما عند هيدغر – هي سر الإبداع وتغيير الوجود. والإبحار في عالمها بمثابة غزوة يقوم بها الشاعر المبدع، أدونيس، مهيار الدمشقي، "فارس الكلمات الغريبة"، ولذلك فهي موارة، ومشحونة بطاقة إيحائية كبيرة، بسبب عصف الشاعر بالانظمة اللغوية والمنطقية الراسخة، التي وضعت حدودا وقواعد ملزمة لا يمكن تخطيها.

وقد لاحظت الدكتورة أمال منصور هذا الخرق والانزياح الذي مارسه أدونيس في هذا العمل الشعري، فقالت:" أسند الشاعر فعل " الحمل والنقل" الى ما لا ينقل و ما لا يحمل، إذ أخرج الفعلين عن دلالتهما المعجمية"، وقام بكسر العلاقة القائمة بين المسند والمسند إليه، فيبدو على إثرها "فارس الكلمات الغريبة" أو مهيار – إذا شئت – إلها ، يستطيع أن يفعل ما لا يمكن للبشر العاديين فعله، فهو قادر على حمل قارة، وقادر على نقل البحر..."[30].

إذن، بهذا العمل الشعري المتميز، إبتكر الشاعر أدونيس، لأول مرة في تجربته الشعرية "، أسطورة من إبداعه. وهي قناعتنا لمدة طويلة، ومن حسن الصدف أن نعثر على إحدى حوارات أدونيس الأخيرة، الذي يؤكد على ما قلناه واقتنعنا به، إذ يقول : "هناك بعض النقاد العرب خلطوا بين شخصية مهيار الدمشقي، والشاعر مهيار الديلمي، وليس ما يجمع بينهما غير الاسم ... فقد أردت من ابتكار هذه الشخصية أن أخرج من

الخطاب الذاتي الشعري المباشر ، وأن أقول عالمنا بلغة غير ذاتية، لغة رمزية تاريخية موضوعية"[31].

أما قصيدة القناع، فإنها تأخرت عند أدونيس الى أعماله التي ضمتها مجموعته " كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل"، التي ضمت من جملة قصائدها " الصقر" و" أيام الصقر" و" تحولات الصقر" وما تلا هذه الأقنعة من أقنعة أخرى.

الهوامش :

(*) هو الشاعر السوري (علي أحمد سعيد)، وهو اسمه الحقيقي (- 1930)، اتخذ إسم (أدونيس) لقبا فنيا له، تحت تأثير الحزب القومي السوري الذي انتمى إليه منذ شبابه الأول، وأيضا تحت تأثير المرحلة التموزية (الأدونيسية) في مرحلة من مسيرته الشعرية.

(**) مفكر سوري، عاش في البرازيل سنين عديدة، تم عاد إلى سوريا ليؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي، الذي نص في أدبياته على القومية السورية التي تشمل – في رأيه - الحضارة الفينيقية و الكنعانية ومؤثرات أخرى، و لا تقتصر على القومية العربية التي تمثلها السلطة الرسمية. وحكم عليه بالاعدام في الأخير ونفذ فيه بسبب أحداث وقعت نتيجة تأثير أفكاره.

(1) الحداثة في الشعر العربي، أدونيس نموذجا، سعيد بن زرقة، الطبعة الأولى 2004، دار أبحاث – بيروت – ص 237

(2) الشعراء التموزيون، الأسطورة في الشعر المعاصر، أسعد رزوق، طبعة دار الحمراء – بيروت – ص16

(3) أنظر الآثار الشعرية الكاملة (المجلد الأول)، أدونيس، الطبعة الأولى 1971، دار العودة – بيروت – ص 352-327

(4) نفسه، ص 353 – 402

(5) نفسه ، ص 403 – 431

(6) نفسه ، ص 433 – 460

(7) نفسه ، ص 461 – 482

(8) نفسه ، ص 483-498

(9) نفسه ، ص 501 – 522

(10)رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر، د.جابر عصفور، طبعة المجلس الثقافي العربي – القاهرة – ص 221.

(11)نفسه والصفحة

(****) يقول عبدالرحمن بسيسو في مقدمة أطروحته للدكتوراه : ((أما أخي وأستاذي، الدكتور جابر عصفور، الذي تعرفت مناهج البحث النقدي، وتفهمتها بفضل مؤلفاته وإرشاداته، فهو الرجل الذي أدرك بحسه النقدي البصير،وبتفتح رؤاه،ما ينطوي عليه القناع : ظاهرة وقصائد : من خطورة في الحياة والفكر والابداع، فألقاني في اليم، ولست أعرف أي صندوق وجدت؟ وليس لي بعد إلا أن أقول له : لعلي أكون قد وفيت وعدا قطعته على نفسي ... فقدمت في هذه الرسالة بعض ما يثلج صدرك، ويجعلني أهلا " لأن أبقى

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

تلميذك البكر" – قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر، عبدالرحمن بسيسو، أطروحة دكتوراه، تحت إشراف، د.جابر عصفور، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم : 01 PH-D - 02-06 (AID) عب ق 1996 .ص(د)

(12) نفس المصدر، ص 160

(13) إتجاهات الشعر العربي المعاصر، د.إحسان عباس، الطبعة الثالثة "2001، دار الشروق – عمان– الأردن – ص221

(14) قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر، عبدالرحمن بسيسو، مخطوط أطروحة دكتوراه.ص 418-419

(15) دراسات في الشعر العربي الحديث، وفيق خنسه، الطبعة الأولى 1980، دار الحقائق – دمشق – ص 29

(16) الآثار الشعرية الكافلة، (المجلد الأول)، أدونيس، ص 325

(17) مارتن هايدغر" الفن والحقيقة" أو لإنهاء الفينومينو لوجي للميتافيزيقا، د.علي الحبيب لفريوي، الطبعة الأولى 2008، دار الفارابي – بيروت – ص 242.

(18) الآثار الكاملة (المجلد الثاني)، أدونيس، ص 329

(19) رؤى العالم عن تأسيس الحداثة في الشعر، د.جابر عصفور، ص 222- 223

(20) أنظر، حوار مع أدونيس، صقر أبو فخر، الطبعة الأولى 2000 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ص 142-143

(21) قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر ، عبدالرحمن بسيسو، أطروحة دكتوراه، ص 169

(22) رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر، د.جابر عصفور، ص 224

(23) الآثار الكاملة (المجلد الأول) ، أدونيس ، ص 331

(24) أنظر، إشكاليات الوجود والتقنية عند مارتن هيدغر، إبراهيم أحمد، الطبعة الأولى 2006، منشورات الإختلاف – الجزائر- ص 87

(25) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (الجزء الأول) ، د.زكي مبارك، المكتبة العصرية للطباعة والنشر– بيروت – ص 141، عن (الجزء الأول) من الفتوحات المكية، لمحي الدين بن عربي

(26) الشعر العربي المعاصر، يوسف سامي اليوسف، منشورات إتحاد الكتاب العرب 1980 – دمشق – ص 141

(27) الآثار الكاملة (المجلد الأول)، أدونيس، ص 332

(28) التشخصن والتخطي في أغاني مهيار الدمشقي، عادل ضاهر، مجلة فصول ، العد.1، صيف 1997، ص 217

(29) الآثار الكاملة (المجلد الأول) ، أدونيس، ص 329

(30) أدونيس وبنية القصيدة القصيرة، دراسة في أغاني مهيار الدمشقي، د .أمال منصور ، الطبعة الأولى 2007، أربد – الأردن.ص 47

(31) حوار مع أدونيس، غربي عبد الوهاب، ومهدي مصطفى Arabic/garreb IHTM-

*** *** ***